



الثقافة عند مالك بن نبي – المفهوم والتجلي -

Culture according to Malik Bennabi - Concept and Manifestation -

أ – عايد خولة

باحثة في طور الدكتوراه

جامعة العربي التبسي –تبسة-

البريد المهني: khaoula.aid@univ-tebessa.dz

البلد: الجزائر

تاريخ الإرسال: 2022 / 01/ 18 تاريخ القبول: 2022/01/28 تاريخ النشر: 2022/01/30

ملخص:

تعد الثقافة أحد أهم القضايا التي شغلت المفكر مالك بن نبي منذ القدم، حتى أنه استطاع أن يبلور نظريته الخاصة فيها، والتي ذاع صيتها على نطاق واسع، فارتبط اسمه بها في العالم العربي، وقد اكتسبت هذه النظرية شهرة واسعة، وهذا ما جعلها مقصدا للكتاب والباحثين عندما تتمحور دراساتهم حول كل ما له علاقة بالثقافة، وقد كان مالك بن نبي يلفت الاهتمام والنظر لنظريته، كما كان يذكرها في مناسبات عديدة، مشيرا إلى ما توصل إليه من ارتباط وثيق بينها وبين الجانب النفسي والتربوي والاجتماعي، ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول تسليط الضوء على تجليات هذه النظرية في عديد المجالات.

الكلمات المفتاحية: الثقافة- المفهوم- التجلي- مالك بن نبي.

Abstract: Culture is one of the most important issues that preoccupied the thinker Malik bin Nabi since ancient times, so that he was able to crystallize his own theory about it, which became widely known, and his name was associated with it in the Arab world, and this theory gained wide fame, and this is what made it a destination for writers and researchers when Their studies center on everything related to culture, and Malik Bennabi drew attention to his theory, as he mentioned it on many occasions, pointing to the close relationship he found between it and the psychological, educational and social aspect, and through this research paper we will try to shed light on The manifestations of this theory in many areas

مخبر علم تعليم العربية بوزريعة الجزائر

Keywords: Culture - Concept - Transfiguration - Malik Bennabi.

مقدمة:

لا يمكن الحديث عن الثقافة في المجال العربي، وعلى مستوى الفكر الإسلامي، دون التطرق والاقتراب من مالك بن نبي، الذي شغلته قضية الثقافة، وظل مسكوناً بها، ولم يفارقها الاهتمام طيلة حياته.

وإسهاماته في هذا الشأن هي الأكثر حضوراً وأهميةً على مستوى الدراسات الفكرية الإسلامية،

فمالك بن نبي هو مفكر استطاع أن يبلور نظرية في الثقافة، ويُعرف بها في العالم العربي، وهي النظرية التي اكتسبت شهرة بين الكتاب والباحثين الذين ظلوا يرجعون إليها، ويعرّفون بها في كتاباتهم وأبحاثهم.

وما زالت هذه النظرية تلفت الاهتمام، وتستوقف نظر المشتغلين في حقل الثقافة والدراسات الثقافية، وذلك لطبيعتها المتميزة من جهة، ولضالة الإبداع والتجديد العربي والإسلامي ومحدوديته في هذا الشأن من جهة أخرى.

وفيما يلي سنتطرق إلى مفهوم هذه النظرية

1- نظرية الثقافة عند مالك بن نبي:

ظل مالك بن نبي يلفت النظر والاهتمام لنظرية الثقافة، كما جدد الحديث عنها باستمرار، وفي مناسبات عديدة، ولم يتوقف عن الكتابة والحديث عنها، والتذكير بها، وذلك منذ أول كتاب له تحدث فيه عن الثقافة، وهو كتاب (شروط النهضة) الصادر سنة 1949م، إلى كتابه الذي خصصه لهذه القضية، وهو كتاب (مشكلة الثقافة) الصادر سنة 1959م، كما تحدث عنها من خلال المحاضرات التي ألقاها في القاهرة ودمشق وطرابلس، وفي الجزائر بعد الاستقلال.

والذي حفّز ابن نبي على تأكيد الاهتمام بفكرة الثقافة، هو اهتمام الطلاب العرب في القاهرة بأفكاره حول مفهوم الثقافة التي تطرق إليها.

هذا الاهتمام شجع ابن نبي لأن يخصص كتاباً حول الثقافة يجمع ويشرح فيه ما توصل إليه من أفكار وتصورات، وفي هذا الصدد جاء كتابه (مشكلة الثقافة)، وبعد اثني عشر عاماً على صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، اعتبر ابن نبي في مقدمة الطبعة الثانية، أن الأفكار التي عرضها حول فكرة الثقافة، كانت غريبة في الوسط الثقافي العربي، ولم يسبقه إليها دارس عربي من قبل، وأنه قد تناول القضية من زاوية جديدة.¹

وفي تقديره أن غرابة الأفكار التي توصل إليها ترجع إلى أمرين: أولاً: لأنها لم تتوخ منهج الدراسات الغربية في الموضوع لأسباب منهجية. ثانياً: لأن الأفكار المعروضة ليست في جوهرها إلا امتداداً وشرحاً تحليلياً من ناحية، وتركيباً من ناحية أخرى للأفكار التي قدمها في أحد فصول كتابه (شروط النهضة)، الذي نشر منذ ربع قرن باللغة الفرنسية، أي عندما كان الموضوع بكرة لا بالنسبة للعالم فحسب، بل أيضاً في بلاد الغرب.²

ولعل هذا الانطباع بغرابة هذه الأفكار تولد عند ابن نبي بعد صدور وتداول كتابه (مشكلة الثقافة)، وما تشكل حول هذا الكتاب من وجهات نظر. ولهذا عبر ابن نبي عن هذه الغرابة في الطبعة الثانية من هذا الكتاب، ولم يلفت النظر إليها في الطبعة الأولى منه.

2- فكرة الثقافة عند مالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أن للثقافة كفكرة حضور في الواقع المجتمعي العام، بدءاً من المجتمعات البدائية حتى الإمبراطوريات، لكنها كانت دون تحديد وتشخيص لواقع اجتماعي، أو بمعنى آخر لم يكن هناك تعريف لفكرة "ثقافة"، ثم جاءت أوروبا الحديثة ومحددها الزمني - عصر النهضة -، فانبثق من ظلال

الفترة مفهوم "ثقافة"، وذلك من خلال مجموعة من الأعمال الأدبية النوعية في الفن والأدب والفكر.

اختلفت تعاريف الثقافة باختلاف المناظير المدرسية (الغربية والماركسية)، من حيث المصدر، سواء كان الفكر أو المجتمع، لكن تعريف الثقافة في المدرستين يتصل بفهم واقع اجتماعي معين موجود بالفعل في نطاق معين، أو موجود في حيز القوة لنطاق فكري معين أيضاً.

أما إذا وضع هذا السؤال في العالم العربي والإسلامي فإنه يأخذ معنى آخر مختلفاً تمام الاختلاف؛ إذ يتصل بخلق واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد، ما سماه بن نبي بمشكلة اللافاعلية، حيث إن الفكرة والشيء لا تكسبان قيمة ثقافية إلا في ظل بعض الشروط، وهما لا يخلقان الثقافة إلا من خلال اهتمام أسعى، ودونه يتجمد "عالم الأفكار" و"عالم الأشياء"، فإذا ما انعدمت هذه العلاقة لم تعد للفرد سيطرة لا على الأفكار ولا على الأشياء، فهو يمر بها دون أن يتصل بكيانها ويتعلق بظواهر الأشياء دون أن يتعمقها، ويلم بالأفكار بعض إلمام دون أن يتعرف عليها: "الفكرة والشيء إذن مرتبطان ومتعاونان والمجتمع لا يمكنه أن يولد أو ينهض بشكل سليم حين يمتلك "عالم الأشياء" فقط وإنما هو بأمس الحاجة لـ "عالم الأفكار" الذي يلتبس فيه إخصاب فكره وبواعث ثقافته كمبادئ التجديد والخلق والإبداع.³

فقد كان منطق التفكير عند ابن نبي يتحدد على قاعدة التمايز والاستقلال الثقافي، فهو لا يرى في التعريفات المطروحة للثقافة سواء منها ما عبر عن وجهة نظر الغربية أو الماركسية ما يدعو إلى الاعتراض، وليس نقصها راجعاً إلى خطأ فيها، وإنما لأن مضمونها كما يقول ابن نبي لا يمكن أن يعطينا مفتاح حلّ المشكلة في الظروف النفسية والزمنية للمجتمعات العربية والإسلامية.⁴

3- مشكلة الثقافة عند مالك بن نبي:

لقد عالج ابن نبي مشكلة الثقافة من ناحيتين، أطلق على الناحية الأولى تسمية التحليل النفسي للثقافة، وعلى الناحية الثانية تسمية التركيب النفسي للثقافة.

*التحليل	النفسي	للثقافة:
----------	--------	----------

في الناحية الأولى، حاول ابن نبي أن يتتبع بصورة سريعة وعامة بعض الملامح التاريخية التي ساهمت في تكوين مفهوم الثقافة، ومن أين جاءت كلمة الثقافة، ومنذ متى استخدمت في اللغة العربية، وكيف تبلور هذا المفهوم وتطور وتحدد في الثقافة الأوروبية، وما خلص إليه ابن نبي أن فكرة الثقافة، هي فكرة حديثة جاءتنا من أوروبا، والكلمة التي أطلقت عليها هي نفسها صورة حقيقية للعبقريّة الأوروبية. والتحليل التاريخي الذي قدّمه ابن نبي في هذا المجال لعله كان مهماً ولافتاً بعض الشيء في وقته، وبالذات على مستوى الكتابات والأدبيات العربية والإسلامية التي لم تكن لأمعة، ولم تشهد تجديداً وتراكماً مبكراً ومهماً في هذا الشأن. أما اليوم فإن صورة ذلك التحليل التاريخي قد تغيرت من حيث أهميته وقيّمته، وبات يظهر لنا وكأنه شديد العمومية والاختزال، ولا يقدم تحليلاً كاملاً ومستفيضاً، ولا حتى معمقاً في حفرياته المعرفية والتاريخية. وأساساً لم يكن التحليل التاريخي هو الجانب المهم في حديث ابن نبي عن التحليل النفسي للثقافة، الذي كان مجرد مدخل تمهيدي لتأكيد حقيقة جوهرية عند ابن نبي، وهي أن كل مجتمع بحاجة إلى تكوين فهم مستقل وخاص به لطبيعة مشكلته الثقافية، أو فكرته عن الثقافة بصورة عامة، وذلك بحسب مرحلته التاريخية، باعتبار أن المشكلة الثقافية في رؤية ابن نبي لها نوعيتها وطبيعتها في كل مجتمع، بالشكل الذي يمنع استيراد الحلول من مجتمع آخر له مرحلته التاريخية المختلفة.

وليس مبنى هذه الملاحظة كما يقول ابن نبي قائماً على اعتبارات دينية أو سياسية، بل هي قائمة على اعتبارات فنية خالصة⁵.

ولهذا يقرر ابن نبي أن من المخاطرة اقتباس حل أمريكي أو حل ماركسي، كيما نطبقه على أية مشكلة تواجهنا في العالم العربي والإسلامي، لأننا هنا أمام مجتمعات تختلف أعمارها، أو تختلف اتجاهاتها وأهدافها⁶. وهذه الفكرة هي من أكثر الأفكار رسوخاً عند ابن نبي، حيث ظل يؤكد عليها باستمرار في معظم مؤلفاته وكتابه ومحاضراته، وبقدر ما كانت هذه الفكرة راسخة لديه حاول ترسيخها في ثقافة الجيل المعاصر له، وأراد أن يحولها إلى قناعة ثابتة تساهم في بلورة منهجية التعامل مع الفكر الأوروبي.

***التركيب النفسي للثقافة**

من الحديث عن التحليل النفسي للثقافة، ينتقل ابن نبي للحديث عن التركيب النفسي للثقافة، لمعالجة مشكلة الثقافة من زاوية أخرى، وفي طور آخر مختلف، وعلى قاعدة التمايز الثقافي، والتباين في مستويات التطور الحضاري. ويرى ابن نبي أن الفرق الجوهرية في طريقة مواجهة مشكلة الثقافة، يتحدد تبعاً لدرجة التطور والتمدن في كل مجتمع، ولطبيعة مرحلته التاريخية. لهذا فإن العالم العربي والإسلامي يختلف في موقفه من الثقافة عن العالمين الغربي والاشتراكي، وليست مشكلته منحصرة في محاولة فهم الثقافة، وإنما بدرجة أساسية في تحقيقها وتمثلها بصورة عملية وتطبيقية، وهذا ما يقصده ابن نبي من التركيب النفسي للثقافة. فعبارة التحليل النفسي للثقافة يراد منها الإجابة عن سؤال: كيف نفهم الثقافة؟ أو كيف نحدد فهمنا الخاص والمستقل للثقافة؟. وعبارة التركيب النفسي للثقافة يراد منها الإجابة عن سؤال: كيف نطبق الثقافة؟ أو كيف يكون للثقافة واقع فعلي في حياتنا؟ ترتكز النظرية الثقافية عند مالك بن نبي على قاعدة تفكيك العلاقة بين

الثقافة والعلم من جهة، وإدماج الثقافة بالحضارة من جهة أخرى.

4-الثقافة والتاريخ:

ومحاولة فهم الثقافة يحددها ابن نبي في إطار التاريخ،.. فالثقافة حسب رأيه ينبغي أن يتصل معناها بالتاريخ، ولا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، والشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه .

والثقافة بهذا المعنى في اتصالها بالتاريخ هي في نظر ابن نبي تلك الكتلة بما تتضمنه من عادات متجانسة، وعبقريات متقاربة، وتقاليد متكاملة، وأذواق متناسبة، وعواطف متشابهة.⁷

5-معنى الثقافة في التربية:

معنى الثقافة في التربية يتحدد عند ابن نبي من خلال صياغة هدفها، وما تتطلبه من وسائل التطبيق، أما الهدف فباعتبار أن الثقافة ليست علماً خاصاً بطبقة من الشعب دون أخرى، وإنما هي دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي. وعلى هذا الأساس فإن الثقافة تشتمل في معناها العام على إطار حياة واحدة، تجمع بين مختلف الطبقات، توحد بينهما مقتضيات مشتركة، وهي تهتم في معناها بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها.⁸

وتطبيق الثقافة هو بمعنى أن تتحول الثقافة إلى أسلوب حياة في المجتمع، بحيث تؤثر على كافة طبقاته الاجتماعية. وهذا التحول في رؤية ابن نبي بحاجة إلى أربعة عناصر مترابطة ومتكاملة فيما بينها، يسميها ابن نبي عناصر أو فصول الثقافة، وهي حسب الترتيب عنده كالتالي:

أولاً: التوجيه الأخلاقي

ويسميه ابن نبي تارة بالمبدأ الأخلاقي، أو الدستور أو الفصل الأخلاقي، وجميع هذه التسميات تحدث عنها في مؤلفاته ومحاضراته، لكن التسمية الأكثر تعبيراً وتفضيلاً لديه هي التوجيه الأخلاقي، ولعلها أسبق التسميات أيضاً .

وكلمة التوجيه تعبر عند ابن نبي عن فكرة حاول التأكيد عليها، وصياغة معنى لها، ويَقْصِدُ بها قوة في الأساس، وتوافقاً في السير، ووحدة في الهدف، فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد والوقت.⁹

ثانياً: التوجيه أو الذوق الجمالي

يرى ابن نبي أن الجمال له تأثير في الروح الاجتماعية، ويشرح هذه الفكرة بقوله (إن الأفكار هي المنوال الذي تنسج عليه الأعمال، وهي تتولد من الصور المحسنة الموجودة في الإطار الاجتماعي، فتنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صوراً معنوية يصدر عنها تفكيره. فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحى للإنسان بأفكاره، ويطبعها بطابعه الخاص، من الذوق الجميل، أو السماجة المستهجنة.

فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل، وتوخياً للكرام من العادات.¹⁰

لهذا يعتبر ابن نبي أن الذوق الجمالي من أهم العناصر الديناميكية في مكونات الثقافة، لأنه حسب رأيه يحرك الهمم إلى ما هو أبعد من مجرد المصلحة، ويحقق شرطاً من أهم شروط الفعالية، لأنه يضيف إلى الواقع الأخلاقي عند الفرد دوافع إيجابية أخرى.

ثالثاً: المنطق العملي:

يعتقد ابن نبي أن الذي ينقص الإنسان المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرداً، وأكثر من ذلك أنه قد يبغض الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً، ويقولون كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول إلى عمل ونشاط.

وفي كتابه (مجالس دمشق) اعتبر ابن نبي أنه يقصد بالمنطق العملي الفعالية، لكنه يفضل تسمية المنطق العملي بوصفه مصطلحاً ينسب لنفسه، وظل يعرف به حسب قوله منذ ربع قرن.¹¹

رابعاً: التوجيه الفني أو الصناعة

يرى ابن نبي أن المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، والمنطق العملي، هذه العناصر لا تكون وحدها شيئاً من الأشياء حسب رأيه، إن لم تكن في أيدينا وسائل معينة لتكوينه، والعلم أو الصناعة، كما في تعبير ابن خلدون، هو الذي يعطينا تلك الوسائل، ويكون عنصراً هاماً في الثقافة، لا يتم بدونه تركيب عناصرها وتحديد معناها، ويدخل في هذا المفهوم كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم. وبقطع جازم يعتقد ابن نبي أن هذه العناصر الأربعة، هي التي بإمكانها أن تساهم في تحديد الثقافة وتركيبها وتحويلها إلى أسلوب حياة في المجتمعات، ولسنا بحاجة حسب رأيه إلى عنصر آخر، وأي إضافة ستكون من فضول الحديث الذي لا حاجة إليه.

ومن الممكن القول بأن هذا التركيب للثقافة وتحديد هذه العناصر الأربعة، يمثل جوهر النظرية الثقافية لمالك بن نبي، ومحور الاهتمام في هذه النظرية.

خاتمة

"الثقافة"، تلك الكلمة التي تجري على ألسنتنا ويدعيها الكثيرون ويتشدد بها الأكثر، كنا نظن أن فهمها يسيراً أو أنها مجرد كلمة لا تحتاج أكثر من بضع كلمات لتعريفها مثلها كمثال العلم أو الدين، لكن من خلال مؤلفات المفكر الإسلامي مالك بن نبي ندرك أن مجرد معرفتها معرفة حقيقية ومحاولة تعريفها وتوضيح حدودها هو مشكلة كبيرة بحق، وقد بذل فيها المؤلف جهوداً رائعة ومحمودة

وتعد جهود مالك بن نبي في بناء الفكر الإسلامي الحديث وفي دراسة المشكلات الحضارية كالثقافة عموماً متميزة، سواء من حيث المواضيع التي تناولها أو من حيث المناهج التي اعتمدها في ذلك.

وكان بن نبي أول باحث يُحاول أن يُحدّد أبعاد المشكلة، ويحدد العناصر الأساسية في الإصلاح، ويبعد في البحث عن العوارض، وكان كذلك أول من أودع

منهجيًا مُحدّدًا في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس والاجتماع
وسنة التاريخ الإسلامي .

⁽¹⁾ ينظر المرجع السابق

⁽²⁾ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة،، ترجمة، عبد الصبور شاهين، دار الفكر-دمشق- سنة

2000م، ص11.

⁽³⁾ - ينظر، بنان طويلة، قراءة في كتاب مشكلة الثقافة³

⁽⁴⁾ ينظر، مالك بن نبي، مشكلة الثقافة

⁽⁵⁾ ينظر المرجع السابق ص139

⁽⁶⁾ ينظر المرجع نفسه ص 37

⁽⁷⁾ ينظر المرجع نفسه ص 87

⁽⁸⁾ ينظر المرجع نفسه ص 77

⁽⁹⁾ المرجع السابق ص 67

⁽¹⁰⁾ المرجع السابق ص 82

⁽¹¹⁾ ينظر، مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر-

دمشق- سنة 2002، ص 17.